﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعدُّدُ المانعِ مِن إيـذاءِ الإنـسانِ بالاغتيابِ وغيرِه

الآيةُ انتقالٌ مِن بيانِ واجباتِ المعاملاتِ معَ اللّه تعالى، ومع النَّبيِّ ﷺ ومع النّاسِ، إلى بيانِ ما يجبُ أن يراعيَهُ الإنسانُ في نفسه[1]، فهذهِ الآيةُ تُقرِّرُ الأُخوَّةَ العامَّةَ المانعةَ مِن الاغتيابِ مِن بَعْدِ بيانِ الأُخوَّةِ في الدّينِ المانعةِ مِن ذلكَ، وذهَب البقاعيُّ إلى أنَّ هذهِ الآيةَ مِن تمامِ ما قبلَها مِن جملةِ آياتٍ في السِّباقِ، فقال: "ولمّا ذكَر سبحانه الأُخوَّةَ الدّينيَّةَ؛ تذكيرًا بالعاطِفِ الموجِبِ للإكرامِ، المانعِ مِن الانتقامِ، ونهَى عن أمورٍ يجُرُّ إليها الإعجابُ بالنَّفْسِ، مِن جهةِ التَّعظيمِ بالآباءِ والعَراقةِ في النَّسَبِ العالي؛ أسْقَطَ ذلك مُبيِّنًا أن لا نسَبَ إلّا ما يُثْمِرُه الإيمانُ الَّذي بدأ بهِ مِن التَّقْوى"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَقۡنَٰكُم﴾: (خلق) أصلٌ يدلُّ على تقديرِ الشَّيءِ[3]، مع استقامةٍ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِن غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ، وفي إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، والخَلْقُ الَّذي هو الإبداعُ مُخْتَصٌّ باللّه تعالى، وأمّا الَّذي يكونُ بإيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ؛ فقد جعله اللّه لغيره في بعضِ الأحوالِ[4]، والمرادُ هنا: الخلقُ المختصُّ باللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258، والزحيلي، التفسير المنير: 26/ 250.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).
(4) الراغب، المفردات: (خلق)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).

2) ﴿شُعُوبًا﴾: (شعب) أصلٌ يدلُّ على الافتراقِ[1]، ومِن ذلكَ: الشَّعبُ، وهو القومُ المنتسبونَ إلى حيٍّ واحدٍ، سُمّوا بذلكَ؛ لتفرُّقِهم عنهُ[2]، والشِّعْبُ مِنَ الوادي: ما اجتمعَ منهُ طَرَفٌ، وتفرَّقَ منهُ طَرَفٌ، فإذا نظرتَ إليهِ مِنَ الجانبِ الَّذي تفرَّقَ؛ أخذتَ في وهمِكَ واحدًا يتفرَّقُ، وإذا نظرتَ مِنْ جانبِ الاجتماعِ؛ أخذتَ في وهمِكَ اثنينِ اجتمَعا؛ فلذلكَ قيلَ: شَعَّبْتُ الشَّيءَ؛ إذا جمعتُهُ، وشعَّبْتُهُ؛ إذا فرَّقتُهُ[3]، والمرادُ بالشُّعوبِ هنا: جمعُ شَعْبٍ بفتحِ الشينِ، وهو مجمعُ القبائلِ الَّتي ترجعُ إلى جدٍّ واحدٍ مِن أمَّةٍ مخصوصةٍ[4].

3) ﴿وَقَبَآئِلَ﴾: (قبل) أصلٌ يدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[5]، ومِن ذلكَ: القبيلُ، وهو جمعُ قبيلةٍ، وهي الجماعةُ المجتمعةُ الَّتي يُقبِلُ بعضُها على بعضٍ[6]، وهذا هو المرادُ هنا.

4) ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾: (عرف) أصلٌ يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ[7]، ومِن ذلكَ: المعرفةُ والعِرْفانُ، أي: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثَرِه[8]، فذلكَ يمنحُ النَّفسَ الطُّمأنينةَ، والمرادُ بالتَّعارفِ هنا: أن يعرفَ بعضُهم بعضًا، والتَّعارفُ يَحْصُلُ طبقةً بعدَ طبقةٍ متدرِّجًا إلى الأعلى، فالعائلةُ الواحدةُ متعارفونَ، والعشيرةُ متعارفونَ مِن عائلاتٍ؛ إذ لا يخلونَ عن انتسابٍ ومصاهرةٍ، وهكذا تتعارفُ العشائرُ مع البُطونِ، والبُطونُ مع العمائرِ، والعمائرُ مع القبائلِ، والقبائلُ مع الشُّعوبِ؛ لأنَّ كلَّ درجةٍ تأتلفُ مِن مجموعِ الدرجاتِ الَّتي دونَها[9].

5) ﴿أَكْرَمَكُمْ﴾: (كرم) أصلٌ يدلُّ على شَرَفٍ في الشَّيءِ في نفسه، أو شَرَفٍ في خُلُقٍ مِنَ الأخلاقِ[10]، وإذا وُصِفَ اللهُ تعالى بالكرمِ؛ فهو اسْمٌ لإحسانه وإنعامه، وإذا وُصِفَ بهِ الإنسانُ؛ فهو اسمٌ للأخلاقِ والأفعالِ المحمودةِ الَّتي تَظْهَرُ منهُ، والإكرامُ والتَّكريمُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعب).
(2) الجوهري، الصحاح: (شعب).
(3) الراغب، المفردات: (شعب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 259.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(6) الراغب، المفردات: (قبل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عرف).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 259.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).

أن يوصَلَ إلى الإنسانِ إكرامٌ، أي: نفعٌ لا يلحقُهُ فيهِ غَضاضةٌ، أو أن يُجعلَ ما يوصَلُ إليهِ شيئًا كريمًا، أي: شريفًا[1]، والمرادُ بالأكرمِ هنا: الأعلى شرفًا ومنزلةً.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الفضلُ بالتَّقوى والعملِ الصّالحِ

يحثُّ اللّه تعالى النّاسَ على التَّقوى، وتركِ التَّفاخرِ بالأنسابِ، فيقولُ: يا أيُّها النّاسُ إنّا أنشَأْنا خَلْقَكم مِن آدمَ وحوّاءَ، أو خلَقْنا كلَّ واحدٍ منكم مِن ماءِ ذَكَرٍ مِنَ الرِّجالِ، وماءِ أنثى مِنَ النِّساءِ، وصيَّرْناكم طوائفَ وجماعاتٍ مُتناسِبينَ، فبعضُكم يناسبُ بعضًا نسبًا بعيدًا، وبعضُكم يناسبُ بعضًا نسبًا قريبًا، والحكمةُ مِن ذلكَ: أن يعرفَ بعضُكم بعضًا في النَّسَبِ، لا لفضيلةٍ لكم في ذلكَ تدعوكم إلى التَّفاخرِ، إنَّ أكرمَكُم عندَ ربِّكم أشدُّكم اتِّقاءً لهُ بأداءِ فرائضه، واجتنابِ نواهيهِ، إنَّ اللّه ذو عِلْمٍ بأتقاكُم وأكرمِكُم عندَهُ، ذو خِبْرةٍ بكُم وبمصالحِكُم، لا تخفَى عليهِ خافيةٌ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

الـحـثُّ عـلى تـركِ الـتَّـفاخرِ بالأنسابِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لإفادةِ غرضٍ جديدٍ، وهو الحثُّ على تركِ التَّفاخرِ بالأنسابِ؛ لِما يُفضي إليهِ مِنَ الأحقادِ والاقتتالِ، وتتفرَّعُ عليهِ السُّخريةُ واللَّمزُ والنَّبْزُ والظَّنُّ والتَّجسُّسُ والاغتيابُ الواردةُ فيها الآياتُ السّابقةُ[3].

الاحتفالُ بالمعنَى داعٍ إلى العملِ به بشدَّةٍ

ويجوزُ أن يكونَ العاطفُ - وهو الواوُ - غائبًا على خلافِ الأصلِ الَّذي هو عطفُ مجموعِ ما بعدَها على مجموعِ معنى الآيةِ السّابقةِ؛

(1) الراغب، المفردات: (كرم).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 309، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 385.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.

لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، فكلٌّ منهما إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، وصدرُ كلٍّ منهما نداءٌ للَّذين آمنوا، وهذا مِمّا يُحسِّنُ الوَصْلَ؛ لو كانَ، وفي غيابِ العاطفِ إيماءٌ إلى استقلالِ هذهِ الآيةِ عمّا قبلَها؛ احتفالًا بمضمونِها، وفي هذا تقريرٌ وتوكيدٌ لهُ، فتتحرَّكُ النَّفْسُ إلى العملِ بما فيهِ على جهةِ القوَّةِ والوكادةِ.

نكتةُ تكرار النِّداءِ في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

أُعيدَ النِّداءُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ للاهتمامِ بهذا الغرضِ؛ إذ كانَ إعجابُ كلِّ قبيلةٍ بفضائلِها، وتفضيلُ قومِها على غيرِهم فاشيًا في الجاهليَّةِ، وكانوا يَحْقِرونَ بعضَ القبائلِ، فكانَ ذلكَ يَجُرُّ إلى الإحَنِ والتَّقاتلِ[1].

التَّساوي في الإنسانيَّةِ أمرٌ يُعْتَنَى بتقريره

بلاغةُ التَّعبيرِ بأداةِ نداءِ البعيدِ (يا):

جيءَ في قولِ الباري تعالى ذكرُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ بـ: (يا) الدّالَّةِ على نداءِ البعيدِ، مع قُرْبِ المخاطَبِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكلامَ الواردَ بعدَها لهُ أهمّيَّةٌ عظيمةٌ، فيجبُ التَّيقُّظُ لهُ.

احترامُ التَّساوي في الإنسانيَّةِ خُلُقٌ عظيمٌ

سرُّ النِّداءِ بعنوانِ النّاسِ:

نوديَ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ بعنوانِ النّاسِ دونَ الإيمانِ؛ رعايةً للمناسبةِ بينَ هذا العنوانِ، وبينَ ما صُدِّرَ بهِ الغرضُ، مِنَ التَّذكيرِ بأنَّ أصلَهم واحدٌ، أي: إنَّهم في الخِلْقةِ سواءٌ؛ ليتوسَّلَ بذلكَ إلى أنَّ التَّفاضلَ والتَّفاخرَ إنَّما يكونُ بالفضائلِ[2]، ولأنَّ الخَلْقَ المذكورَ عامٌّ[3]، ولفظُ النّاس يدلُّ على الذَّبْذبة والاضطرابِ، ففيه إشارةٌ إلى سُفول رُتبة مَن افتخَر بالنَّسبِ، وإلى أنَّ مَن لم يتَّعِظ بما مَضَى، فيعلو عن رُتبة

أصلُ جميعِ النّاسِ واحدٌ، ومَن غفَل عن ذلك سفَل سُفولًا عظيمًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 145.

الَّذين آمنوا، فقد سفَل سُفولًا عظيمًا، والمعنى: يا أيُّها النّاسُ كافَّةً المؤمنُ وغيرُه[1].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

تعريفُ: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ للاستغراقِ، والمرادُ جميعُ أفرادِ النّاسِ، فيعمُّ الموجودينَ والمعدومينَ مِن بني آدمَ، فلا يتناولُ آدمَ وحوّاءَ، وهو ظاهرٌ، ولا يتناولُ عيسى عليه السلام أيضًا، وإن أُريدَ بهم النّاسُ مِن هذهِ الأمَّةِ؛ فالأمرُ واضحٌ، لكنَّ الخطابَ عامٌّ للموجودينَ والمعدومينَ إلى يومِ القيامةِ، فلا بدَّ مِن ارتكابِ المجازِ على كلِّ حالٍ[2].

الحكمُ المذكورُ في الآيةِ شاملٌ لجميعِ النّاسِ إلّا ما خصَّهُ الدَّليلُ

نكتةُ تأكيدِ ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ بـ: (إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونه، وتقريره، وبيانِ أنَّهُ حقيقةٌ ثابتةٌ يقينًا، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ انتزاعِ سخيمةِ التَّكبُّرِ، والتَّعالي، والتَّفاخرِ مِنَ النُّفوسِ.

خَلْقُ النّاسِ مِن ذكرٍ وأنثَى حقيقةٌ ثابتةٌ

نكتةُ الالتفاتِ والتَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ في ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾:

عُبِّرَ بضميرِ العظمةِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وهذا التفاتٌ إلى مقامِ التَّكلُّمِ بهذه الصيغةِ، مِن مقامِ الغيبةِ باسمِ الجلالةِ فيما سبَق مِن آياتِ السّورةِ؛ لتعظيمِ شأنِ هذا الخَلْقِ بأنَّهُ صادرٌ عن ذي العظمةِ والجلالِ، القديرِ المقتدرِ، الَّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ[3]، فمِثْلُ هذا الخَلْقِ آيةٌ قاهرةٌ ودلالةٌ باهرةٌ؛ لأنَّه لا يقْدِر عليه إلّا اللّه الخالقُ سبحانه وبحمده، ومِثْلُ هذا يُقال في هذهِ الصّيغةِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الآية.

خَلْقُ العظيمِ القديرِ عظيمٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 145.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 381.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾:

خلقُ النّاسِ كلِّ النّاسِ واقعٌ لا محالةَ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قوله ﷻ: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ الخلقِ ووقوعه، وهذا ناظرٌ إلى تحقُّقِ أصْلِ معنَى الخلْقِ، لا إلى أثَرِ الخَلْقِ، مِن الأفرادِ المخلوقينَ، على معنَى: أنَّ خَلْقَ مَن خُلِقَ دليلٌ على إمكانِ خلْقِ مَن لَمّا يُخلَقْ، فأمرُ الخَلْقِ بالنِّسْبةِ للّه تعالى محسومٌ؛ لأنَّه لا يقْدِرُ عليه إلّا اللّه الخالقُ العظيمُ؛ بدلالةِ صيغةِ العظمةِ.

معنى ﴿مِّن﴾:

ابتداءُ خلقِ النّاسِ مِنْ ذكرٍ وأنثى

كلمةُ ﴿مِّن﴾ في قوله ﷻ: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ للابتداءِ[1]، والمعنى: خلَقْناكم ابتداءً مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، ومعنَى الابتداءِ مُنبِّهٌ دقيقٌ لعقلِ المُتلقّي وقلبِه؛ للنَّظَرِ والتَّفكُّرِ في مدخولِها، فيَحْصُلُ له شيءٌ مِن المُباغَتةِ إذا ما تلقَّى مدخولَها، وهو: ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ لأنَّه قد يتوقَّعُ بقوَّةٍ ذِكْرُ أصلِ ما خُلِقَ منه الإنسانُ - كما في آياتٍ أخرى - كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: 11] الآية؛ فلهذا الحرفِ: (مِنْ) أثَرٌ في المُتلقّي حينَ تلقّيه معنَى الكلامِ؛ إذ يجعلُ فيه نوعَ تشوُّفٍ إلى ما بعدَه، وذلكَ مِن البلاغةِ الدَّقيقةِ العاليةِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾:

الإفرادُ أدلُّ على وحدةِ الخَلْقِ والتَّساوي بينَ النّاسِ

تنكيرُ المتعاطفيْنِ: ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، إمّا للإفرادِ، والمرادُ بهما آدمُ وحوّاءُ عليهما السلام فيكونُ تنوينُ: ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ لأنَّهما وصفانِ لموصوفٍ، أي: مِن أبٍ ذَكَرٍ، ومِن أمٍّ أنثى، وإمّا للنَّوعيَّةِ؛ فالمرادُ أبٌ وأمٌّ لكلِّ واحدٍ[2]، إلّا ما خصَّهُ الدَّليلُ، أي: كلُّ واحدٍ مكوَّنٌ مِن صنفِ الذَّكرِ والأنثى، وأيًّا ما كانَ؛ ففي الكلامِ تنصيصٌ على التَّساوي بينَ النّاسِ، فلا داعيَ للتَّفاخرِ بينَهم.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 145، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 356، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 258.

نكتةُ تقديمِ الذَّكرِ على الأنثى:

التَّساوي في الخَلْقِ لا يتعانَدُ معَ التَّفاوتِ في الفَضْلِ

تقديمُ الذَّكرِ على الأنثى في قوله ﷻ: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ للجَرْيِ على عادةِ القرآنِ في تقديمِ الذَّكرِ على الأنثى، وسِرُّ هذهِ العادةِ هنا الإيماءُ إلى أنَّ التَّساويَ بينَ النَّاسِ في الخَلْقِ لا يتعانَدُ معَ حصولِ التَّفاضُلِ بينهم، مِن جهاتٍ أخرى - كما هنا - فالذَّكَرُ "هوَ المقصودُ بالعَزْمِ والقوَّةِ"[1]، والأنثى "هيَ موضِعُ الضَّعْفِ والرّاحةِ"[2]، ولو كانَ الهدفُ مجرَّدَ إثباتِ التَّساوي فقط؛ لأبْلَغَ القرآنُ في تقريرِه بتقديمِ الأنثى على الذَّكَرِ، وإن كانَ المرادُ بالذَّكرِ والأنثى آدمَ وحوّاءَ ﷺ فآدمُ أسبقُ في الوجودِ.

سرُّ اختيارِ النَّسَبِ مِن جملةِ أسبابِ التَّفاخرِ:

غيرُ النَّسَبِ أولى بألّا يكونَ مِعيارًا للتَّفاضلِ

اختيرَ النَّسَبُ مِن جملةِ أسبابِ التَّفاخرِ في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، ولم يُذكَرِ المالُ؛ لأنَّ الأمورَ الَّتي يُفتخَرُ بها في الدُّنيا وإن كانَت كثيرةً؛ لكنَّ النَّسَبَ أعلاها؛ لأنَّ المالَ قد يحصلُ للفقيرِ، فيبطلُ افتخارُ المُفتخِرِ بهِ، والحُسْنُ والسِّنُّ وغيرُ ذلكَ غيرُ ثابتٍ دائم، والنَّسَبُ ثابتٌ مستمرٌّ غيرُ مقدورِ التَّحصيلِ لِمَنْ ليسَ لهُ، فاختارَهُ اللّه للذِّكرِ، وأبطلَ اعتبارَهُ بالنِّسبةِ إلى التَّقوى؛ ليُعلَمَ منهُ بطلانُ غيرِه بالطَّريقِ الأولى[3].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾:

الفضائلُ سببُ الرِّفعةِ

الخبرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ مُستعْمَلٌ؛ كنايةً عن المساواةِ في أصلِ النَّوعِ الإنسانيِّ، ليُتوصَّلَ مِن ذلكَ إلى إرادةِ اكتسابِ الفضائلِ والمزايا الَّتي ترفعُ بعضَ النّاسِ على بعضٍ[4]، وهذه كنايةٌ قريبةٌ، وهيَ كنايةٌ عن صفةٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 113.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 261.

نكتةُ عطفِ ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾:

تشعيبُ النّاسِ بعدَ خلقِهم مَدْعاةٌ إلى التَّعارفِ

عطْفُ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ على قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ لإتمامِ المقصودِ، وهو الحثُّ على تركِ التَّفاخرِ بالأنسابِ الَّذي يُفضي إلى التَّناحرِ والاقتتالِ وزرعِ الأحقادِ؛ لأنَّ اللّه شعَّبَهم؛ لأجلِ الوئامِ والتَّعارفِ، لا لأجلِ التَّفاخرِ.

غرضُ إسنادِ الجعلِ إلى ضميرِ العظمةِ:

تفصيلُ النّاسِ إلى فِرَقٍ أمرٌ باهرٌ عظيمُ الشَّأنِ

أُسنِدَ الجعلُ إلى ضميرِ العظمةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾؛ لأنَّ تفصيلَهم إلى فِرَقٍ أمرٌ باهرٌ، عظيمُ الشَّأنِ، لا يَصْدُرُ إلّا عن العظيمِ ﷻ، فالتَّكلُّمُ أدخلُ في الاختصاصِ، وأدلُّ عليه، وأفخمُ، فعُبِّرَ فيهِ بنونِ العظمةِ، والمعنى: وجعَلْناكم بعظمتِنا[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالجعلِ دونَ الخلقِ:

الخَلْقُ أصلٌ، والجَعْلُ فَرْعٌ عنهُ

عُبِّرَ بالجعلِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾، ولم يُعبَّرْ بالخلقِ كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾؛ لأنَّ الخلقَ أصلٌ تفرَّعَ عليهِ الجعلُ شُعوبًا، واعتبارُ الأصلِ متقدِّمٌ على اعتبارِ الفرعِ[2]، ولأنَّ الشَّعبَ والقبيلةَ لم يكونا في أصلِ الخِلْقةِ، بل هما صفتانِ عارضتانِ، فناسبَ لفظُ (جعلَ) بمعنى (صيَّرَ)[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾:

تنوُّعُ شعوبِ بني الإنسانِ وقبائلِهم

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ المُتعاطفيْنِ: ﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ للتَّنويعِ، أي: وجعَلْناكم شعوبًا وقبائلَ متنوِّعةً، وهذا تمكينٌ لمعنى الاتِّساعِ والعمومِ الكائنِ في نَفْسِ معنى الكلمتَيْنِ: ﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾، وهذا إبلاغٌ في الكَشْفِ عن عظمةِ الخالقِ سبحانه وقدرته.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 382.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 113، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 168.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 45.

سرُّ الاقتصارِ على ذكرِ الشُّعوبِ والقبائلِ:

إذا عُرِفَ الأعلى؛ عُرِفَ الأدنى

اقتُصِرَ في قوله تعالى: "﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ على ذِكْرِ الشُّعوبِ والقبائلِ؛ لأنَّ ما تحتَها - كالبطونِ وغيرِها - داخلٌ بطريقِ لحنِ الخطابِ[1]، ولأنَّهما أقصى ما يَسْهُلُ على الآدميِّ معرفتُهُ، فما دونَهُ أَوْلى[2]، ولم يذكرِ القرآنُ الأممَ جريًا على المتداوَلِ في كلامِ العربِ في تقسيمِ طبقاتِ الأنسابِ؛ إذ لا يدركونَ إلّا أنسابَهم[3]، فليس الغرضُ هو التفصيلَ، فذُكِرَ ما يتناغَى معَ المقصودِ مِن الآية، مِن التَّساوي في أصلِ الخَلْق، الدّاعي إلى التَّحلّي بالفضائلِ، والتَّخلّي عن الرَّذائلِ، وما ينبني على ذلكَ مِن أنَّ النَّسَب ليس جهة تفاضُلٍ، وإنَّما التَّقوى والأخلاقُ، فبالتَّحلّي بالفضائلِ يجتمعُ الخلْقُ، ويُقْبِلُ بعضُهم على بعضٍ، وبارتكابِ الرَّذائلِ يتشعَّب الخلْقُ، ويتفرَّقون، فاختيرَ: ﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾؛ للتَّنبيه في لطفٍ إلى هذا المعنَى؛ تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارعِ في ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾:

تعارفُ النّاسِ مستمرٌّ متجدِّدٌ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قوله ﷻ: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾؛ لأنَّ التَّعارُفَ مستقبلٌ بالنِّسبةِ للخلقِ، والمضارعُ يكونُ للاستقبالِ، كما يكونُ للحالِ، وللدَّلالةِ على استمرارِ التَّعارفِ وتجدُّده؛ نظرًا إلى عمومِ المُخاطَبِ واتِّساعِه على مَرِّ العُصورِ والأمصارِ والأجْناسِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

نكتةُ فصلِ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾:

التَّقيُّ هو المُستحِقُّ للفضلِ والمُفْخَرةِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّ الكلامَ السّابقَ كالموردِ للسُّؤالِ؛ وذلكَ أنَّهُ تعالى لَمّا علَّلَ الخَلْقَ بالتَّعارفِ، على معنى: ليسَ التَّشعُّبُ والقبائلُ للتَّفاضلِ والتَّفاخرِ، بل لأن يَعْرِفَ بعضُ الخلقِ بعضًا، ويتميَّزَ شخصٌ مِن شخصٍ، كأنَّهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 259.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 382.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 259.

قيلَ: بأيِّ شيءٍ التَّفاخرُ؟ ومَنِ الَّذي يستحقُّ المفخرةَ؟ فقيلَ: مَن هو أتقى للّه، وأخشى لهُ[1]، فهذهِ الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ[2]، والفصلُ لشبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

غرضُ تتابعِ المؤكِّدات في ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾:

التَّقوى ميزانُ التَّفاضلِ يقينًا

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونه وتحقيقه؛ لأنَّهُ أمرٌ في غايةِ الأهمّيَّةِ، وفيهِ تقريرٌ لحقيقةٍ ثابتةٍ، وهي أنَّ التَّقوى ميزانُ التَّفاضلِ[3]، وهوَ أيضًا ناظرٌ إلى ما عندَ العَربِ وغيرهم مِن النّاسِ، مِن أنَّ الكرمَ إنَّما هوَ بالنَّسَبِ[4].

فائدةُ التَّعبيرِ بالعنديَّةِ في ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

لا اعتدادَ بكرمٍ لا يعبأُ اللهُ بهِ

معنى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ في حُكْمِ اللّه تعالى وقضائه[5]، وفي التَّعبيرِ بالعنديَّةِ تنبيهٌ على أنَّهُ لا اعتدادَ بكرمٍ لا يَعْبَأُ اللّه بهِ[6].

دلالةُ اسمِ التَّفضيلِ: ﴿أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾:

فـي صيغةِ التَّفضيلِ دعوةٌ إلى التَّنافُسِ، بما فيها مِن تفاوُتٍ

جيءَ باسمِ التَّفضيلِ في قوله جلَّ مِن قائلٍ: ﴿أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ التَّقوى مراتبُ، أدناها أن يجتنبَ العبدُ المَناهيَ، ويأتيَ بالأوامرِ، فإن ارتكبَ منهيًّا عنهُ؛ يُتبِعُهُ بحسنةٍ، ويظهرُ عليهِ ندامةٌ وتوبةٌ، ومتى ارتكبَ منهيًّا عنهُ، وما تابَ في الحالِ اتِّكالًا على طولِ الأملِ؛ فليسَ بمتَّقٍ، أمّا الأتقَى؛ فهو الَّذي يأتي بما أُمِرَ بهِ، ويتركُ ما نُهيَ عنهُ، وهو معَ ذلكَ يخْشَى ربَّهُ، ولا يَشْتَغِلُ بغيره، فيُنَوِّرُ قلبَهُ[7]، وصيغةُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 375، والطيبي، فتوح الغيب: 14/ 506.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 147.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 382، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 123.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 236.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 147.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 262.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 115.

التَّفْضيلِ تعودُ على التَّكريم في قوله: ﴿أَكْرَمَكُمْ﴾ بإضافة معنًى، وهو أنَّ التَّكريمَ مراتبُ كالتَّقوى.

سرُّ الاقتصارِ على ذِكرِ التَّقوى:

التَّقوى مقدَّمةٌ على غيرِها مِنَ الفضائلِ

الاقتصارُ على ذكرِ التَّقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ لأهمّيَّتِها، وهو لا يُنافي أن تكونَ للنّاسِ مكارمُ أخرى في المرتبةِ الثّانيةِ بعدَ التَّقوى، ممّا يكونُ لهُ أثرٌ في تزكيةِ النُّفوسِ، كحُسْنِ التَّربيةِ، ونَقاءِ النَّسَبِ، والعلمِ والحضارةِ، وحُسْنِ السُّمعةِ في الأممِ والفضائلِ والعائلاتِ[1].

علَّةُ فصلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

لا يعلمُ الكرامةَ الحقَّ إلّا الله

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ تذييليٌّ لمضمونِ جملةِ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، أي: إنَّما كانَ أكرمُكم أتقاكم؛ لأنَّ اللّه تعالى عليمٌ بالكرامةِ الحقِّ، وأنتم جعلتم المكارمَ فيما دونَ ذلكَ مِنَ البَطْشِ، وإفناءِ الأموالِ في غيرِ وجهٍ، خبيرٌ بمقدارِ حظوظِ النّاسِ مِنَ التَّقوى[2]، فالفصل لشبْهِ كمال الاتِّصالِ، ويجوزُ أن يكونَ الفَصْلُ لكمالِ الاتِّصالِ بينَ الطَّرفيْنِ؛ لأنَّ معنَى كلٍّ منهما يلزمُ منه الآخَرُ، فالأوَّلُ يُنْتِجُ الثّاني، ويُمهِّدُ له، والثّاني يُؤكِّدُ الأوَّلَ، ويُحقِّقُه.

غرضُ تتابعِ المؤكِّداتِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

الفخرُ بالأنسابِ عادةٌ متوارَثةٌ

لمّا كانَ مركوزًا في طبائعِهم مُتوارثًا عندَهم أنَّ الفخرَ إنَّما هو بالأنسابِ، وأنَّ الكريمَ إنَّما هو مَنْ طابَ أصلُهُ؛ أُكِّدَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ لاقتلاعِ ذلكَ مِن نفوسِهم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 262.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 262 - 263.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 384.

براعةُ الكنايةِ للإيجاز في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:

قولُهُ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، كنايةٌ عن الأمرِ بتزكيةِ نيّاتهم في معاملاتِهم؛ وذلكَ لأنَّهُ يلزمُ مِن علمِ اللهِ تعالى بما في نفوسِهم أنَّهُ يُحاسِبُهم عليهِ، وهذه المُحاسَبَةُ تَنطَوي على الأمرِ بالتَّزكيةِ المذكورةِ، وهذا أقربُ إلى أن يكونَ مِن مُستتبعاتِ التَّراكيبِ، لا مِن بابِ الكنايةِ، وهذا ضرْبٌ مِن إيجازِ القِصَرِ.

اللهُ تعالى مطَّلعٌ على ما في النُّفوسِ، ومُحاسِبٌ عليهِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْقُ والذَّرْءُ والبَرْءُ:

أصلُ الخلقِ: التَّقديرُ المستقيمُ، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِن غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ، وفي إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، والمعنى الثّاني قد يُضافُ لغيرِه تعالى[1]، والبَرْءُ: تمييزُ الصّورةِ، ومعنى: (برأ اللهُ الخلقَ): ميَّزَ صوَرَهم[2]، وأصلُ الذَّرْءِ: الإظهارُ، ومعنى: (ذرأ اللهُ الخلقَ): أظهرَهم بالإيجادِ بعدَ العدمِ[3]، ويُلحَظُ فيهِ معنى البَثِّ والتَّكثيرِ.

الخلقُ مقترنٌ بالإظهارِ والبثِّ والتَّكثيرِ

والحاصلُ أنَّ هذهِ الألفاظَ الثَّلاثةَ تشتركُ في معنى الإيجادِ مِنَ العَدَمِ، وينفردُ الذَّرْءُ والبَرْءُ بأنَّهما لا يُضافانِ لغيرِه سبحانَهُ، وأمّا الخَلْقُ؛ فقد يُضافُ لغيرِه تعالى؛ إذا كانَ بمعنى إيجادِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ.

وقد عُبِّرَ بالخَلْقِ في الآيةِ؛ لأنَّهُ الأشهرُ، وهو يكونُ قبلَ تمييزِ الصّورةِ والإظهارِ، والبثُّ والتَّكثيرُ يَحْصُلانِ بما ذُكِرَ بعدَهُ، مِن جعْلِهم شعوبًا وقبائلَ.

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138، والراغب، المفردات: (ذرأ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"